من مظاهر الجماليات البلاغية في الحديث النبوي

د. بلال احمد زرغر*

ملخص البحث

إنّ لغتنا العربية هي لغة تفيض حسنا وتختال بهاء، نراها تسمو وتزهو بما اشتملت عليه من المرونة ومظاهر الإبداع فتتباين فيها التراكيب ذكرا وحذفا أو تقديما وتأخيرا أو إثباتا ونفيا أو قصدا وإبهاما، وما دامت لغة القرآن الكريم والحديث الشريف هي العربية الفصحى فإنّها ستظل مصونة عزيزة ما طال بها الزمن، هي لغة سماوية تكفل الله بحفظها قائلا: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ، هي لغة الحديث النبوي الشريف أيضًا لا يعرض لبيانها ولا لتبيانها قصور أو كذب في الشعور. لغة بديعة لا على مثال سابق سوى القرآن العظيم، في أسلوب مؤثر في السامع والمتلقي وبصياغة وانتظام بنيوي وبموازاة استجابة تنحرف وتعدل عن أسلوب أي بشر آخر. يحمل العدول فيها من منظور الدراسات البلاغية والأسلوبية سمة جمالية إبداعية فنية.

وحاولت في هذه المقالة استظهار بعض العدول البلاغي واستكناه جمالياته في نماذج من الأحاديث الشريفة، مستنبطا من أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى. ألا وهو صحيح الإمام البخاري - رحمه الله تعالي -، وإنّ البلاغة النبوية وأسلوب النبيّ صلى الله عليه وسلم يخاطب كل قوم بلغتهم وعلى مذهبهم ثمّ لا يكون إلّا أفصحهم وأبينهم قولا، وما كان ذلك كذلك إلّا باختراق جمالي لأصول لغتهم وقواعدها ومحاكاة لفطرتهم والطبيعة الّتي يعيشون فيها وجبلوا عليها.

١. مفهوم مصطلح العدول:

المعنى اللغوي: إنّ لمادة، (عدل) بتتبع دلالة المصطلح وطرق أبواب أشهر المعاجم

* الزميل ما بعد الدكتوراه بجامعة كشمير

عدة معاني: منها حاد ومال، ومع معجم لسان العرب: (عدل عن الشيء يعدل عدلا وعدولا حاد عن الطريق جار وعدل إليه عدولا رجع، وماله معدل ولا معدول أي مصرف، وعدل الطريق مال، ومنه قول أبي خراش:

على أنني، إذا ذكرت فراقهم تضيق على الأرض ذات المعادل

والعدل: أن تعدل الشيء عن وجهه، تقول: عدلت فلانا عن طريقة وعدلت الدابة إلى موضع كذا. كما تأتي بمعنى (ترك الشيء والانصراف عنه إلى غيره، يقال: عدل الفحل عن الضراب: أي تركه وانصراف عنه، وهو المعنى يحمله معجم القاموس المحيط، وهو ما اتفقت عليه أغلب المعاجم العربية القديمة والحديثة. وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في قوله تعالى: (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)، أي أن العدول يحمل معنى واحدا، وهو الخروج والحياد عن أصل ما إلى غيره.

المعنى الإصطلاحي: إنّ ظاهرة العدول متعلقة بالدراسات الأدبية الأسلوبية، فالأسلوب يعرف بأنّه انحراف وخروج عن المألوف أي الاستعمال المتعارف عليه، ويصبح علم الأسلوب هو علم الانحرافات، فإنّ العدول هو أيضا أسلوب الانحراف اللغوي من التعبير لغايات جمالية فنية، وذلك لغرض تأثيرات بلاغية وأسلوبية. إذ أنّ الأسلوب مفارقة أو انحراف عن نموذج آخر من القول إليه على أنّه نمط معياري، وهذا يعني أنّ اللغة عبارة عن نظام تمثله القواعد المعيارية المحددة. إلّا أنّها تتعرض إلى مجموعة من المتغيرات المتعددة، تعرف بالعدول، وهي كسر القواعد النحوية أو العروضية أو الصرفية لغايات فنية وجمالية، قد تتمثل في "... الاتساع، والتوكيد، والتشبيه"، ولقد وضّح ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في حديثه عن المجاز الّذي هو من مصطلحات العدول مستدلا بقول النبيّ صلى الله عليه وسلم في فرس "وهو بحر" فأما الاتساع فلأنه زاد في أسماء الفرس الّتي فُرسُ وطرف وجواد ونحوها البحر، حتى إنه إن احتيج بلاغيا بالدرجة الأولى، "فالعدول عن التصريح باب من البلاغة.

من العدول البلاغي والأسلوبي في الحديث النبوي الشريف:

مما لا شك فيه أن الجمال هو تحصيل عناصر تتكامل وتتلاحم وتتناسق، فيكون

الجمال في الشكل والهيئة، وفي الأفعال والتصرفات، أي في الخلق والخُلق، وفي البساطة قد نلمح الجمال، وهكذا تمثل الجمالية عملية البحث عن الجمال في علاقة تثير الشعور بالارتياح بين ثلاثة عوامل هي: الموضوع الخارجي المتناسق، البيئة المحيطة، والنفس المدركة، ومن جهة أخرى فإنّ الجمال قد يتسلط ويظهر في العدول عن المألوف والإتيان بما لم يسبق اكتشافه أو تداوله، وفي الانحراف عم ألفه الإنسان أو سنّه، وعلى هذه الوتيرة ننزاح عن القول ونتجاوزه وننتهك القواعد لنخلق أبهى الأساليب، وحديثي في هذا البحث عن كلام ليس ككل كلام، عن الحديث النبوي الشريف، عن كلام خاتم الأنبياء والمرسلين، (يقولون مجنون بعض آلهتنا اعتراه، وأساطير الأولين اكتتبها أم يقولون افتراه، بلى إنّ العقل الكبير في كماله ليتمثل في العيون الصغيرة كأنّه جنون وإنّ النجم المنير فوق هلاله ليظهر في العيون القصيرة كأنّه نقطة فوق نون)، نعم إنّها بلاغة

أشرف خلق الله في أسلوب دعوي تربوي ووجداني آسر، كيف لا يمتنع عن الهرم إن كان يشد بأيدينا إلى السّماء ويطبّب أنفسنا المريضة، وكيف لا وهو موجه للرعيل الأوّل والتابعين من بعدهم وتابعي التابعين إلى يوم الدين، وقد قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم: يا أيّها الناس: إنّي قد أعطيت جوامع الكلام وخواتيمه واختصر لي اختصار"، وشدّ على بلاغته العالية أهل العلم، فقال الجاحظ فيه: "ولم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعا، ولا أقصد لفظا ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه"، وقال الأديب الرافعي فيما قال: "هذه هي البلاغة الإنسانية الّتي سجدت الأفكار لآياتها، وحسرت العقول دون غاياتها، لم تُصنع، وهي من الإحكام كأنّها مصنوعة، ولم يتكلف لها، وهي على السهولة بعيدة ممنوعة". والعدول عن الأصل في القرآن الكريم عشرات بل مئات المرات، فعلى سبيل المثال نجد العدول عن الأصل في الذكر والحذف، كحذف نون كان في قوله تعالى: (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)، والحذف مشروط عند سيبويه والجمهور إذ كيون الحرف التالي للنون متحركا غير ضمير متصل، والكثير من الأمثلة في العدول على

مستوى الحرف والكلمة، كعدول فعل للتأثير والأريحية للسامع والمتلقي، لكن "ليس كل خروج عن الوظيفة النحوية يمتلك وظيفة جمالية"، وإنّ جماليات الأداء الأسلوبي في الحديث النبوي تتعدد وجوهها، وتتنوع طرائقها، ولكن الأثر الباقي في النفس الإنسانية المؤمنة برسالة الإسلام، والّتي تعمق فيها الإحساس بعظمة الشخصية المحمدية وعبقريتها ... هذا الأثر الباقي هو الإحساس بجمال المنطق وحلاوة التعبير، وشرف المعنى وصحته، وسمو قصده وحكمته. وإذا احتكمنا إلى أراء علماء الجمال، نجد أن فريقا منهم يرى أن الجمال وحقيقته مستقرة في ذلك الشيء وذاته، ومنهم "شوبنهاور" و"هيدجر"، أمّا الفريق الآخر فيرى أنّ الجمال هو الشعور الّذي ينبع من نفس الإنسان اتجاه شيء ما .. حينئذ تكون حقيقة الجمال مستقرة في نظرة الإنسان من خلال ما يشعر به نحو ذلك ومنهم "كانت، فجمال منطق المصطفى صلى الله عليه وسلم مكتسب لأنّ الله فطّره على ذلك، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الّذي في أسلفها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا"

ما أعظم التقابل الموجود في هذا الحديث إشارة إلى حدود الله، ومعنى استهموا على سفينة اقترعوا على تقسيمها، وأخذ كل فريق سهما بالقرعة وهذا التشبيه التمثيلي النبوي ووجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد وهو تشبيه حال المسلمين القائم منهم على الحدود والواقع فيها والساكت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحال قوم شركاء في سفينة تنازعوها فاستهموا على قسمتها. فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فأراد من في أسفلها خرقها تيسيرا للحصول على الماء ولم يجدوا بأسًا من ذلك على اعتبار أنهم يتصرفون في خالص نصيبهم، فإن منعهم من هم في أعلى السفينة من هذا التصرف الخطير نجا الجميع، وإن تركوهم وما أرادوا هلك الجميع، فهذا التصوير النبوي البديع "دعوة لولوج المتلقي إلى ما ورائيات الأشياء أو

توجه إليه ليحتضن في مقاطف مختلفة الإيحاءات الّتي تظل تحوم فوق الصورة التشبيهية، ليحاول اقتناص ما أمكنه من طيورها المختلفة، والّتي سيظل بعضها يرف بأجنحته حواليه ولا يستطيع أن يقبض عليه. ويوضح نص الحديث أن صيانة الأمة وأمنها لا يحصلان إلّا بأخذ الراشدين فيها بأيدي العابثين المفسدين، تطبيقا لمبدأ إسلامي عظيم نشتاق إليه اليوم في مجتمعنا وهو الأمر المعروف والنهي عن المنكر، هذا العدول الجمالي قد حقق التفاعل النفسي بين القائل محمّد صلى الله عليه وسلم وبين مسامع كل عصر، في لغة متقابلة، وفي إعطاء النقيض، فبين أسفلها وأعلاها، في تشبيه تمثيلي بلاغي غاية في الرفعة، وفي قالب قصصي مؤثر في المستمع والمتلقي، "والتمثيل: ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور، ومن البديهي القول أن التشبيه في الأصل يقوم على عقد مقارنة بين شيئين في صفة أو أكثر، تكون في العادة أظهر في المشبه به منها في المشبه وذلك هو الأصل، غير أنه في بعض الاستخدامات يخرق الأصول فيجعل تلك الصفات أبرز في المشبه منها في المشبه به، وهو ما يعرف في البلاغة بالتشبيه المقلوب؛ وما يهمّنا هو إظهار بعض ملامح العدول من خلال التشبيه في الحديث النبوي الشريف.

ومن صور العدول أيضًا في التشبيه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أراد من خلال هذه التشبيهات بيان تفاوت المبادرين إلى الجمعة في الفضل والأجر، وعدل عن النحو المجمل إلى التفصيل، لما في التفصيل من إلحاح على التفاوت، وأيضًا نضرب مثالا للعدول في أبهى صوره ما رواه ثابت بن الضحاك رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ مِلَّةِ الإِسْلاَمِ فَهُوَ كَمَا قَالَ ـ قَالَ ـ وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بشيء عُذِّبَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَعْنُ الْمُؤْمِنِ

كَقَتْلِهِ، وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ، فالنبي صلى الله عليه وسلم بفطنته وذكائه الملهم من رب العزّة يدرك تساهل الناس فيما يصدر عنهم من أقوال لظنّهم أن هذه الأقوال ليست بمورد هلاك كما الحال بالنسبة لكبائر الذنوب، ولذلك عمد إليها فقرنها بكبيرة من أكبر الكبائر مما رسخ في أذهان الناس حرمتها، فشابه بين اللعن والرمي بالفكر، وبين كبيرة القتل في الإثم، وذلك ليرهب الناس مما يصدر من أقوال وينبههم على خطورة ما يعتقدون أنه سهل يسير. وعلى الرغم من أن التشبيهين يسيران في مجرى واحد، وهو الترهيب مما يتصور أنه ليس بمورد هلاك، فقد تغاير بناؤها اللغوي، فجاء تشبيه اللعن في جملة اسمية، في حين بُني تشبيه الرمي بالكفرة على أسلوب الشرط، ومن رمى مؤمنا بكفر فهو كقتله"، والأسلوب انعطاف في حركة المعنى؛ فما سبقه من كلام يدور حول أذى الإنسان لذاته .. في حين تشبيه اللعن والّذي بعده دار حول أذى الإنسان لأخيه المؤمن، فكأنّ العدول في بناء تشبيه اللعن عن أسلوب الشرط جاء بمنزلة انعكاس لغوي لبدء معنى جديد غير الّذي قبله.

وإذا ما ذهبنا إلى جمالية العدول في الاستعارة فنجد الكثير من الأحاديث الشريفة في هذا، عن أبي المليح، قال: كنا مع بُريدة في غزوة في يوم ذي غيم، فقال: بكروا بصلاة العصر؛ فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله، فالاستعارة في قوله عليه السلام "حبط عمله" إذا استعار الحبط، ومعناه في اللغة أن تصيب الدابة مرعى طيبا، فتفرط في الأكل حتى تنتفخ، فتموت، للدلالة على بطلان عمل من ترك صلاة العصر لاشتغاله في الدنيا واستغراقه في متاعها.

وكذلك ما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ". قَالُوا لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ " فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا" نلاحظ في هذه الصورة تجسيم معنى الغفران أتم تجسيم، فلا يكون المشهد مجملا تلمحه العين، ثمّ يغيب عنها، وإنّما يكون مطولا مفصلا، يبقي حاضرا في الذهن، وتتجول العين في أرجائه، ويعد هذا الإدراك الحسي

المفصل لذهاب الخطايا عاملا جليلا في دفع السامع نحو الأخذ بالأفعال الّتي تؤدي إلى غفران الخطايا؛ وذلك لأنه تحسس الغفران واقعا حيا بأم عينيه. ولأنّ الصور كثيرة نكتفي بآخر حديث نبوي رسم الاستعارة بانحراف جمالي وعدول آسر، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا طلع حاجب الشمس، فأخروا الصلاة حتى ترتفع، وإذا غاب حاجب الشمس فأخّروا الصلاة حتى تغيب" استعير الحاجب وهو صفة إنسانية، للشمس، وهي ليست بذات حاجب، وذلك لتحديد المقدار من الشمس الّذي لا يصح معه الصلاة فجرا أو عصرا.

وآخر ما يمكن الحديث عنه في ظاهرة العدول في علم البيان هو المجاز المرسل، فعن أبي قتادة السلمي رضي الله عنه أن رسول الله قال: "إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس"، وهنا نلمح صورة جزئية للدلال بالركوع على الصلاة في مقام الدخول إلى المسجد، وهذا ما يسمى بالمجاز المرسل. ومن صورة أيضًا في الحديث النبوي الشريف في باب إطلاق لفظ الأهل على الزوجة، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: " أَمَا إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ وَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا "فالرجل لا يأتي أهله، وإنّما يأتي زوجه، ولكن النبيّ صلى الله عليه وسلم دلّ بالأهل على الزوج لأسباب كثيرة من باب إطلاق الكل على الجزء، ومن باب تكريم للزوج لكأن الزوجة هي الأهل كلهم، وأيضًا ما يتطلبه المقام من اللطف والرقة.....

وبالحديث عن العدول في الحديث النبوي الشريف في علم البديع فالصور كثيرة، بدع الشيء يبدعه وابتدعه: أنشأه وبدأه ... والبديع الشيء الّذي يكون أوّلاً، وفي الترتيل: قل ما كنت بدعا من الرسل"، أي ما كنت أوّل من أرسل فقد أرسل قبلي رسلا كثيرا، ومن بين مظاهر الحسن النبيّ نسعى لتحسسها في بعض المحسنات البديعية، جراء قيمتها العدولية، المتولدة عن الطبع والعفوية، فالطباق في قوله صلى الله عليه وسلم: "رفعت إلي سدرة المنتهي، فإذا أربعة أنهار، نهران ظاهران، ونهران باطنان، فأمّا الظاهران فالنيل والفرات، وأمّا الباطنان فنهران في الجنة، ولا نقول أن مقامات

الحسن في المحسنات البديعية تتأتى فقط من خلال قيم الانحراف والدول، ذلك أن الكثير منها لا تقول على هذه المزية الفنية الأسلوبية.

ومن الأحاديث الّتي ورد فيها الجناس، جناس الاشتقاق في قوله صلى الله عليه وسلم: (إنّ للجنّة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلّا الصائمون"، في نص الحديث جناس اشتقاق عن طريق المفرد والجمع (باب/ أبواب)، إذ عمل هذا الجناس على إعطاء قيمة جمالية للمتلقي من خلال استخدامه للإيحاء بأبواب الجنة الثمانية والباب الخاص للصائمين الّذي أطلق عليه تسمية الريان، راح عبد القاهر الجرجاني يثبت أن الجمال في الجناس لا يرجع إلى جمال الألفاظ، من حيث هي وإنّما يعود ذلك إلى إيهامك أن بالكلمة الثانية لم يسمعك إلّا حروفا مكررة لن تجد لها فائدة، في قوله: "وعلى الجملة فإنّك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الّذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، ومتى تجده لا تبتغي به بديلا وتجد عنه حولا، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه، وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم ... كما يمثلون به في قول الشافعي رحمه الله تعالى، وقد سئل عن النبيذ، فقال: أجمع أهل الحرمين على ترحيمه، ومما تجده كذلك قول البحتري.

بعيش عن المجد الغبي ولن يرى في سؤدده أربا بغير أريب

وبالحديث عن الجناس الّذي يقيم بناءه على البراعة في قلب الصورة المألوفة وتحسس مكامن القدرة في صناعة الدلالة.

وإذا أردنا تحسين البديع في أركان أخرى هامة من علم البديع لقلنا أن المحسن البديعي المسمى "أسلوب الحكيم" فيه نوع من الخروج عن المألوف، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقبه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأل وإمّا بحمل كلامه على غير ما كان يقصد، إشارة إلى أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال، أو يقصد هذا المعنى، وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم – جالسا بين أصحابه – رضوان الله عليهم – يعلمهم ويربيهم، يحادثهم ويحاروهم، فيهم الذكي، وفيهم البسيط،

الصغير القليل الخبرة، وفيهم المسن الّذي حنكته التجارب وعركته الحياة، فدرى من كنهها وذاق تباريحها وحلوها ومرها، فكان صلى الله عليه وسلم يحدثهم بالقول الحكيم الوسط، فعن معاوية بن إسحاق عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: "استأذنت النبيّ صلى الله عليه وسلم في الجهاد فقال: جهادُكُنّ الحج"، وفي هذا الحديث وقع فيه جواب النبيّ صلى الله عليه وسلم بغير ما تترقب السيدة عائشة رضي الله عنها، إذ الجواب المطابق أن يقول لها صلى الله عليه وسلم: اخرجن للجهاد، لا تخرجن للجهاد، فهي لم تسأل عن حكم الجهاد عليهن، فجاء جواب الرسول ببيان حكم الجهاد عليهن وأنه ليس بواجب، وأرشدهن إلى ما هو الأولى بهنّ، ولم يكن عليهن واجبا لما فيه من مغايرة المطلوب منهن ومجانبة الرجال كما يقول ابن حجر في فتح الباري، قال ابن كمال باشا (ت٩٤٠هـ): الأسلوب الحكيم مرجعه إلى العدول في الجواب عن موجب الخطاب لحكمة شريفة يقتضيها المقام، أو نكتة لطيفة يرتضيها ذوو الأفهام، سواء كان ذلك العدول لصرف الكلام عن مراد الكلام إلى معنى آخر يحتمله أيضًا أو بدونه.

وعن أبي موسى رضي الله عن قال: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".

في هذا الحديث جاء أسلوب الحكيم في جواب رسول الله حيث عدل عن بيان ماهية القتال إلى بيان حال المقاتل فتضمن هذا الجواب وزيادة، تحقق فيها إفادة السائل وإرشاده إلى ما هو الأولى والأجدر، قال ابن جمرة: ذهب المحققون إلى أنه كان الباعث الأوّل قصد إعلاء كلمة الله لم يضره ما انضاف إليه.

وفي حديث آخر – والأحاديث كثيرة في العدول عن الجواب أو اللغز في الجواب – عن عائشة رضي الله عنها: أنّ قومًا قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ قومنا يأتوننا باللحم لا ندري اذكروا اسم الله عليه أم لا؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سموا الله عليه وكلوه"، فالجواب عنهم: سموا الله عليه وكلوه من الأسلوب

الحكيم، وهو جواب السائل بغير ما يترقب، كأنه قال: الّذي يهمكم أنتم أن تذكروا اسم الله عليه وتأكلوا منه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رجلا قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ مِنَ الثِّيَابِ؟، فَقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاَ يَلْبَسُ القمص ولا العمائم ولا السَّرَاوِيلات، وَلاَ الْبُرْنُسَ، وَلاَ الخفاف، إلّا أحد لا يجد نعلين فيلبس خفين، وليقطعهما أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا من الثياب شيئًا مسّه الزعفران، جوابه عليه أزكى الصلاة من جوامع الكلم، وهو من الأسلوب الحكيم، قال القاضي عياض (ت ٥٤٤هـ) سئل عما يلبس المحرم فأجاب بما لا يلبس ويترك. وإنما عدل إلى ذلك لأن المتروك منحصر، والملبوس لا ينحصر فحصر ما يترك ليبين أن ما سواه مباح لباسه. ولعل الجاحظ أوّل من فطن إلى هذا النوع من فنون البديع، فقد عقد فيه بابا خاصا له في البيان والتبيين وأطلق عليه اسم "اللغز في الجواب". هكذا يتجلى العدول والانحراف والجواب الحاذق في الأسلوب الحكيم وفي المفوّه بإلهام الله سيد المرسلين.

وحديثي آخر البحث عن مظهر آخر من مظاهر العدول البلاغي والأسلوبي في الحديث الشريف، ألا وهو الالتفات كمحسن بديعي، "ومثل غيره من الفنون البلاغية ذو أثر جليّ في تنويع أنماط الكلام تلبية لبواعث نفسية شتى". والالتفات من العدول لأنه يحقق الانصراف عن الأصل خدمة للسياقات الفنيّة، وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر، أي العدول من صيغة إلى صيغة أخرى. كان يعدل من التكلم إلى المخاطب، وعن التكلم إلى الغيبة، ومن صور الالتفات الأخرى في الكلام العدول من الماضي إلى المستقبل وبالعكس لدلالات معينة، ومن هذا المنطلق كانت معالجتنا للالتفات بوصفه أحد المحسنات الّتي تضفي على المعنى جمالا وبهاء، ومثل هذا الأسلوب كثير في الحديث النبوي الشريف، فضلا عن كثرة وروده في القرآن الكريم، فكل التفات هو عدول وليس كل عدول التفات، وإنّ مكمن سر تقاطع الالتفات كقيمة فنية، مع مظاهر العدول الأخرى كونه مسعى أسلوبيا يقوم على مقتضيات التخطي والانحراف عن الأنماط المعتادة القارة، وقد سماه ابن جني "شجاعة العربية"، وعلل

ابن الأثير سبب التسمية، فقال "لأن الشجاعة هو الإقدام، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيع غيره، ويتورد ما لا يتورده سواه، وكذلك هو الالتفات في الكلام، فإنّ اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات. وكوقفة مع بعض الصور الالتفاتة الّتي وردت في الحديث النبوي الشريف في صحيح البخاري. ففي حديث بشير بن كعب رضي الله عنه عن الصادق الأمين محمّد صلى الله عليه وسلم قال: "اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ"، فقد التفت عن أسلوب التكلم وعدل عنه إلى أسلوب الخطاب (أنا عبدك وأنا على عهدك) إلى أسلوب الخطاب (اغفرلي)، فالرسول صلى الله عليه وسلم في أحد المقامات الرئيسية من مقام الدعاء الّتي يعترف فيها بالفضل للخالق جلّ شانه، ويريد تطهير النفوس من الذنوب، ويحصل بالشكر والتقرب، فجاء الالتفاف لغرض تخصيص هذا الأمر للخالق عزّ وجلّ، إذ أنه عدل من أسلوب لآخر تبعا لسياقات الكلام، إذ شكل الالتفات في هذا الحديث من الدعاء النبوي أحد المقامات الأساسية في إضافة رونق وحسن في الكلام من خلال الالتفات عن أسلوب خطاب (أنت ربي) إلى أسلوب التكلم (أنا عبدك)، ومما نجاء أيضًا من الالتفات في الحديث النبوي قوله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثٌ من كان فيه وأحد حلاوة الإيمان أن يكون أهل ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار".

بدأ نص الحديث الشريف بشرط، ترقب وانتظار وطلب، ثمّ سياق آتٍ بالتفاتين يفاجآن المتلقي لينقلا الحدثين إلى المضي بالملتفت إليهما (كن ... وجد ...) وينشئ في جو النص دلالات المعنى طيا ويدفعه المتلقي إلى استكناه هذا الزمن بما طواه من أسرار، لتركيز عدسة الذهن على مجرد وجدان الحلاوة المستعارة للإيمان بالكناية، في معنى يخترق ويكمن في القلب. فتجاذت الصور فيها بينها في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم في صورة بديعة لتتحمل بدلالات ذوق الحلاوة جميعها، "فنحن نتوصل إلى معنى

ما ندركه، حينما يكون ذلكن ممكنا، بواسطة تمثل الحاضر في الماضي، فتأتي بها من الماضي بانفعالاتها الجاهزة، فتكون النفس مسبقا ذاقت هذا المعنى وتشربت به وبمشاعر قلبية منتظرة، هذا العدول الفريد من نوعه في ثلاثية (أن يكون ... أن يحب .. أن يكره)، والأمثلة جمّة لظاهرة الالتفات في الحديث النبوي الشريف، إذ يخاطب الالتفات النبوي النفس الإنسانية عن طريق التحول من صيغة إلى أخرى. وإنّ الالتفات والعدول النبوي في أغلب دلالاته يخاطب الجانب النفسي أكثر من الجانب الفكري للمتلقي.

وهذه المعاني العظيمة في خطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهذه الأساليب، وما تمتاز به من وسائل لغوية وجماليات أدبية جعلته ومن دون منازع يتربع على قمة هرم الأساليب البشرية، جمال وبيان وتبيان وسحر قول، وقوالب خارقة لما سنته بيئة العرب القاحلة، وبلاغة نبوية مؤثرة في توجيه النفس الإنسانية، كيف لا وهو من قريش، ونزل عليه الكلام أعجز الثقلين، فصلا يفهمه كل من سمعه على حد قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، والمصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، حديث يجري بحفوله بالأساليب والفنون العربية، معانٍ وألفاظ تعدل عم سنته قواعد العرب، فكل لفظة أو فقرة لا تجدها تنبو عن موضعها ولا أحد يسعه أن يحيلها عن ذلك الموضع أو يستبدل بها غيرها لتكون أوفى دلالة وأشد إحكامه جامعة مانعة، كلاما معصوما من كل نقائص تؤثر أو تعيق رسالة عظيمة إلى العالم.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أ. المعاجم:

١. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين بن مكرن، لسان العرب، إعداد يوسف خياط، دار لسان العرب، ط١.

٢. مجد الدين محمّد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الجيل

ب. المصادر

١. أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير دمشق، بيروت، طبعة جديدة منقحة ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

٢. أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المعرفة – بيروت.

٣. الباقلاني أبو بكر، إعجاز القرآن الكريم، تح: أبو بكر عبد الرزاق، مكتبة مصر، (د،ط)، ١٩٩٤م.

٤. ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمّد علي النجاري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٨٣م.

٥. الجاحظ أبو عمر عثمان، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٥، ج٢.

٦. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق: محمّد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية، ط٣، ١٩٩٢.

٧. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمّد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة – بيروت ج٣.

٨. السكاكي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرور، دار الكتب العلمية بيروت ط ٣، ١٩٨٧م.

٩. سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت (د، ط)، ج٣، ١٩٨٨.

١٠. ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح وتع: كامل محمّد عويضة، ج٢، دار الكتب العلمية بيروت ط١، ١٩٩٨.

١١. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمود محمّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة (د، ط) ١٩٩١.

١٢. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: محمّد عبد العزيز خفاجة، عبد العزيز شرف، دار الجيل بيروت ١٩٩١م.
١٣. فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تح: بكري الشيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٥.

ج: المراجع:

١. أحمد محمّد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، مجد المؤسسة الجامعية، بيروت ط١، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
٢. أدونيس، الصوفية والسريالية، دار الساقي، بيروت لبنان، ط ٣.
٣. أحمد أبو قحافة، البلاغة والتحليل الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت ط ٣، ١٩٩٢م.
٤. جابر عصفور، الصورة الفنية فيث التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، (د، ط)، ١٩٩٢.
٥. جليل رشيد فالح، مجلة آداب المستنصرية كليلة الآداب، بغداد، ع ٩، ١٩٨٤.
٦. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، دار الكتاب الجديد، بيروت – لبنان، ط ٥، ٢٠٠٥.
٧. عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة – قراءة القصيدة، تحليل مركب لقصيدة أشجان يمانية، دار المنتخب العربي، بيروت – لبنان، ط ١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤.
٨. عبد الحميد هنداوي، الإعجاز الصوفي في القرآن الكريم، المكتبة العصرية، بيروت (د، ط) ٢٠٠٢.
٩. عبد العزيز حمودة، المرايا المعقرة، نحو نظرية نقدية عربية، نشر سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
١٠. عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د، ط) ١٩٨٠.
١١. السيد الأحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ضبط: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، صيد، لبنان ط ١، ١٩٩٩.